مقاربة في مفاهيم ورؤى الثقافة ومواجهة أخطارها

أ. د. المختار عثمان العفيف
كلية الآداب بالزاوية

المقدمة:

في بحثنا المزمع المساهمة به في هذا الصرح العلمي قد جاء بعنوان: مقاربة في مفاهيم ورؤى الثقافة ومواجهة أخطارها، ونقصد بالمقاربة هي محاولة عرض بعض المفاهيم والتعريفات للثقافة، لأن مثل هذه المواضيع تحتاج إلى دراسات معمقة على الرغم من كثرة ما تناولته أقلام الباحثين والمفكرين العرب، وذلك لأن المثقف العربي مسئول بالدفاع عن شخصية أمتنا العربية وحضارتها العريقة، وذلك بالحافظة على تراثها الروحي والمعنوي، وفي هذا الشأن يتجلى شرف المواطنة وشرف الكلمة بأن المثقف يهم في تبصير هذه الأمة بما يحيط بها من أخطار قد تطمس هويتها، وهذا ما يطمح إليه الغرب في وسائل إعلامه المأجورة، وفي هذه الورقة البحثية نحاول أن نبسط الحديث على مفهوم لفظة الثقافة لغة، وفي بعض الموسوعات، وعند بعض الباحثين وغيرهم، ومن جانب آخر نطرح بعض التساؤلات في مجال مفهوم الثقافة وطرق تحصيلها وعلاقتها بالمجتمع والعلم والحضارة، وأخيراً كيفية مواجهة أخطار الغزو الثقافي.

بداية جاء في لسان العرب عند ابن منظور في مادة ثقف الشيء: حَذَقَه، ورجل ثَقْف: حاذق وفهم، ويقال أيضاً: هو سرعة التعلم، وثقفي: أي فطنة وذكاء، والمراد هان أنه ثابت المعرفة بما يحتاج إليه.[1]

أما في المنجد في مادة ثقافة: تعني صار حاذقاً خفيفاً[2]، وفي الاصطلاح هي المكاسب العقلية والأدبية والذوقية والتكنولوجية، كذلك جاء عند علماء الاجتماع والأنثروبولوجية، بأن العلم مهما يكن نوعه والاختصاص فيه ما هو إلا وسيلة لتحصيل الثقافة وليس هو الثقافة.[3]

وفي الموسوعة العربية الميسرة تفيد بأن الثقافة هي: "أسلوب الحياة السائد في أي مجتمع بشري، والاستخدام العلمي للكلمة لا يتضمن التهذيب أو تقدم المعرفة، ومنذ البدايات الأولى للجنس البشري والثقافة أهم ما يميز المجتمع الإنساني عن التجمعات الحيوانية، فعادات

الجماعة وأفكارها واتجاهاتها تستمد من التاريخ وتنقل تراثاً اجتماعياً إلى الأجيال المتعاقبة، واللغة هي العامل الرئيسي لنقل الثقافة وإن كانت بعض السلوك والاتجاهات تكتسب بوسائل أخرى غير اللغة، ويشير اصطلاح (الثقافة المادية) إلى جانب الذي تمثله أشياء: كالآلات والأسلحة والملابس وأشغال الفن، ودرجة تعقد التنظيم الثقافي تساعد على التمييز بين تحضر المجتمعات".[4]

أما في الثقافة الشعبية يرى البعض بأنها هي كل ما يتعلق بالذاكرة الجماعية، وفيها المرويات والحكايات الشعبية حتى الأسطورية منها، والأدب الشعبي والفلكلور، وأنماط العادات في المصاهرات والسلوك الاجتماعي؛ كل هذه هي في نطاق مكونات الثقافة الشعبية.[5]

وبطيعة الحال نجد أن هناك مفاهيم ورؤى أخرى للثقافة، بحيث يرى بعض الباحثين بأنها ترتبط بالعلوم الإنسانية التي تتناول مجال الإنسان نفسه: لغته، تاريخه، دينه، فكره، وغير ذلك بينما يرى البعض الآخر بأن الثقافة تشمل جميع وسائل الفكر والعمل والخبرة في مجتمع ما، وزيادة على ذلك كل ما تتناقله الأجيال من المورثات والقيم المجتمعية والمعارف والخبرات.[6]

ومن الشواهد الاخرى لمقاربة مفهوم الثقافة يقول الدكتور محمد الرميحي رئيس تحرير مجلة العربي، وذلك نقلاً عن (ريتشارد ماك كيون) عن ككتابه (أصالة الثقافة ودورها في التفاهم الدولي) بأنها أنماط ناشئة عن تطور تاريخي، ومن ناحية أخرى أنها مجموعة من العادات يعترف بكونها مقبولة في جماعة معينة، كما يمكن متابعة آثارها في كل دوائر النشاط الإنساني، كالسياسة والحقوق والفن والدين والمعرفة العقلية بمختلف صورها.[7]

وفي مفهوم التاريخ المعاصر هناك من يرى أن الثقافة أصبحت تعني جملة النشاطات والمشروعات والقيم المشتركة التي ينبثق عنها تراث مشترك من الصلات المادية والروحية التي تبنى على أساسه مشاعر الانتماء والتضامن والمصير الواحد.[8]

إن ما سبق ذكره ما هو إلا مفاهيم ومدلولات لمقاربات كثيرة لتعريف الثقافة أو مفهومها التي اختلف في النص والتوكيد، وهو ما دفع البعض محاولة لصوغ تعريف دقيق للثقافة "بأنها

تتناول طريقة حياة الشعوب الذي ندرسه وسلوكه التقليدي بمعناه الواسع الذي يضم أفكاره وتصرفاته وأشغاله اليدوية"، وأن ما يميز الإنسان عن أعضاء اعالم البيولوجي هو الثقافة وليس المؤسسات المجتمعية، لأن الثقافة تكتسب بالتعلم، وبالتالي نتيجة للمزيد من التعليم أي أن الاعراف والعادات والمعتقدات والبنية الاجتماعية والمؤسسات المدنية كل ذلك يمكن أن يتعرض للتغيير.[9]

وبالنظر لمفهوم الثقافة نجدها تتفاوت من مجتمع إلى آخر، ومن شخص لآخر بحسب طبيعة كل منهما والفرص المتاحة للفرد أو المجتمع من حيث آفاق المعرفة والرقي الحضاري، وبذلك نؤكد على أن الثقافة في المفهوم المعاصر تطلق على كل معرفة التي تهدف إلى رقي الإنسان وتقدمه في استخدام أساليب الحياة العملية، وبالتالي يكون حسب رأي البعض المثقف هو الذي حصل على قدر كاف على معارف عصره.[10]

إن محصلة المقاربة لبعض المفاهيم والرؤى لتعريف الثقافة نستدل بقول الدكتور محمد الرميحي بأن لم يتم حتى الآن على الصعيد العالمي توحيد مفهوم الثقافة بمعناها الشامل لأن التعريفات حول الثقافة متعددة يكاد يصل مجموعها إلى أكثر من المائة والخمسين تعريفاً على حد قوله، لذلك كان منها التعريف الشامل أو الواسع، ومنها التعريف الضيق، وبذلك ما يريد قوله أن الثقافة تعني الإنتاج العربي الفكري، لكنه يطرح سؤال حول ماهي المشكلات التي تواجه هذا الإنتاج الفكري العربي المعاصر، وماهي الحلول التي تعالج تلك المشكلات.[11]

تساؤلات أو إشكالية البحث:

إن الإلمام بموضوع الثقافة على نطاق واسع هناك تساؤلات مهمة تلامس مسار البحث لتعزيز مفاهيم ورؤى وتعريف الثقافة ومجالاتها وخصائها وأخطارها...وهي:

- ما هو مفهوم وماهيتها؟
- ماهي وسائل تحصيل الثقافة المجتمعية؟
- هل ثقافتنا المعاصرة تحافظ على الموروث والقيم الإنسانية في مجتمعاتنا العربية؟
- هل ثقافتنا تدعو إلى الأصالة والتجديد والرقي الحضاري في ظل ديننا الإسلامي؟

- كيف نجنب مجتمعاتنا العربية خاصة الشباب من الغزو الثقافي الاستعماري ومن مخاطره السلبية والهدّامة لقيمنا الإسلامية؟[12]

إن هذه التساؤلات وغيرها التي طرحت في البحث تقول لو أراد باحثاً أو كاتباً الإجابة عليها في بحث كهذا لربما احتاج إلى سفر ضخم للإحاطة به، وليس أدلّ على ذلك هنا هو إقامة أو انعقاد هذا المؤتمر الموّقر حول (الثقافة المجتمعية) الذي تنظمه كلية الآداب بالزاوية جامعة الزاوية بتاريخ 13 ديسمبر 2021م، بقاعة ودار بيت الثقافة بالزاوية للكتّاب، وقد بلغ عدد المشاركين بالبحوث إلى أكثر من 40 بحثاً يتضمن محاور هذا المؤتمر.

كل التساؤلات السابقة وغيرها جديرة بالبحث لمعالجة إشكالية خطر الغزو الثقافي على أمتنا العربية في الوقت الراهن، ولكن خصوصية بحثنا يتم باختصار تناول أطار الغزو الثقافي وكيفية مواجهته.

أخطار الغزو الثقافي:

يرى البعض أن الغزو الثقافي هو تصدير أساليب الحياة من قيم واتجاهات سائدة في ثقافة ما في مجتمع متطور مثل الغرب الأوروبي إلى مجتمع متخلف وذلك بكل الوسائل المتاحة، ويُعد الاستعمار الثقافي من أخطر انواع الاستعمار لأنه يهدف إلى طمس هوية الشعوب عن طريق التغريب الفكري ؟ الحضاري والتبعية الثقافية للدول التي استعمرت بلدانهم سابقاً أو عن طريق الدول المتقدمة تكنولوجياً وأيدولوجياً مثل أمريكا إلى شعوب العالم الثالث عبر وسائل الإعلام المختلفة وبواسطة التعليم أيضاً، ولعل أبرز مثال لذلك بلاد الجزائر الشقيقة التي عاشت طيلة 132 سنة ترزخ تحت هيمنة فرنسا الاستعمارية في محاولة طمس وتدمير للمقومات الشخصية الجزائرية التي تتمثل في اللغة العربية وثقافتها وفي الدين الإسلامي.[13]

والمجال هنا تقديم عرضاً شاملاً ؟ الجزائر التي تمت إبان الاحتلال بكل وسائل الترغيب والترهيب، ولكن السؤال المطروح هنا كيف واجهت الجزائر سياسة الغزو الثقافي؟

لا شك أن الحق يقال أن مفكري الجزائر وأعلامهم أمثال الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية، قد حذّر الشباب الجزائري من خطورة التغريب بدعوى أ ثقافة الغرب متقدمة وفيها حداثة مقارنة بثقافتهم بأنها متأخرة، وقد أكد ابن باديس في نص نشره في مجلة

(شهاب) سنة 1935م وفيه "يحث الشباب الجزائري الاستزادة من المعارف والعلوم وبأي لغة ؟ وأية أمة، ولطن ضد خطر ذوبان شخصيتهم في الكيان الفرنسي الأجنبي عن كيان أمتهم...".[14]

وفي هذا الشأن وأيضاً يقول تركي رابح "ان أية أمة من الامم حري بها ألا تُعد نفسها مستقلة حتى الاستقلال الكامل ما لم يواكب استقلالها السياسي والاقتصادي...والاستقلال الفكري والروحي، الذي هو عنوان الاستقلال الخالد، وبرهانه القاطع".[15]

أما بالنسبة لأقطار البلدان الإفريقية الأخرى فقد فرضت فرنسا على الشعوب الإفريقية سياسة الفرنسة أو الاندماج على غرار بلدان المغرب العربي (تونس – الجزائر – المغرب) وذلك بفرض الثقافة والتقاليد والنظم الفرنسية وقطع كل صلة بتاريخهم القومي وحضارتهم الإفريقية والارتباط تاريخياً واجتماعياً وسياسياً بالأم الكبرى فرنسا.[16]

وفي بلدان إفريقيا أيضاً ترتب على الغزو الثقافي من تغريب وتأورب واغتراب ثقافي وتوجه علماني وفصل الدين عن الدولة وإضعاف للغة العربية وكذلك الانقلاب الثقافي والتبعية الثقافية التي تُعد من أخطر نتائج الغزو الثقافي خاصة في بلدان الدول النامية من دول العالم الثالث.[17]

ومن أخطار الغزو الثقافي في إفريقيا طمس هوية شعوبها لإفساح المجال أما حركة التبشير داخل البلدان المستهدفة، وبهذه الوسائل وغيرها تشربت بأفكار وثقافة الغرب الذي يحارب الثقافة الإسلامية، وبذلك أصبحت ثقافات بعض البلدان الإفريقية في دائرة آفاق الرؤية الغربية.[18]

وبذلك كانت دول الغرب الأوروبي وأمريكا تهدف من سياسة الغزو الثقافي إلى تمزيق وحدة العرب المسلمين في البلدان الإسلامية في إفريقيا وجنوب شرق آسيا، وتركت آثار كثيرة تحمل الولاء للغرب.[19]

لا شك أن الاستعمار وبعض المستشرقين ومثقفي الغرب أثناء حقبة الاستعمار للدول النامية في العالم الثالث تم توظيف الغزو الثقافي لشعوب تلك البلدان التي استقلت عنه حديثاً

أصبحت تعاني من الميراث الاستعماري خاصة في المجال الثقافي للسيطرة على أفكار وعقول تلك الشعوب، وبالتالي نقول كيف يتم التحرر من تلك الهيمنة.[20]

مواجهة خطر الغزو الثقافي:

لتلافي هذ الخطر يجب اتباع الآتي:

- التمسك بهدى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وبأصول ديننا الحنيف.
- يجب أن يكون لمنظمات المجتمع المدني دور في تعزيز المواطنة وروح الهوية الثقافية لنشر تعاليم الإسلام لدى أفراد المجتمع.
- الاعتزاز بلغتنا العربية بأصالة حضارتنا العربية الإسلامية.
- يجب الاهتمام في خطط مناهج التعليم بكشف خطر الغزو الثقافي الذي يهدد كيان امتنا الإسلامية.
- إقامة الملتقيات الثقافية لتوعية الشباب من مخاطر الغزو الثقافي الذي يهدف إلى تفسخ قيم مجتمعاتنا بنشر وترويج الظواهر الهدامة عبر وسائل الاتصال والإعلام والتواصل الاجتماعي.
- إعطاء مجال لحرية لرأي والفكر لكن في حدود قيمنا وأخلاقنا الإسلامية.

الخاتمة:

وفي خاتمة هذا البحث حول مقاربة المفاهيم والرؤى لتعريف الثقافة ومخاطر الغزو الثقافي ومواجهة أخطاره كما أشرت سابقاً كذلك يقع العبء الأكبر على تداول الآراء والمناقشات الهادفة في ملتقيات الأندية والجمعيات والمنتديات والروابط والمنظمات بالمجتمع المدني ذات النفع التي يكون هدفها المصلحة العامة، وذلك بتطوير الوعي تجاه القضايا الديمقراطية التي تهم المجتمع من خلال تعزيز روح المواطنة لدى أفراد المجتمع ليكون مثالاً طيباً للمواطن الصالح الذي يطمح لخدمة بلده، ويكون له بُعداً استراتيجياً مهماً لحماية الدولة من كل خطر.[21]

المراجع

1 ابن منظور، لسان العرب، مج1، دار الحديث، القاهرة، 2003م، ص684-685.

2 قاموس المنجد، ط4، دار الشرق، بيروت، 2007م، باب ثقل.

3 محمد الطمار، الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج، الشركة الوطنية للنش والتوزيع، الجزائر، 1983م، ص7.

4 الموسوعة العربية الميسرة (إشراف محمد شفيق غربال)، مج1، دار الجيل، مصر، 1995م، ص581.

5 أنور عبد الملك، الفكر العربي في معركة الثقافة، ترجمة بدر الدين عروكي، ط3، دار الآداب، (د.ن)، 1981م، ص10.

6 شوكت محمد عليان، الثقافة الإسلامية وتحديات العصر، ط3، مكتبة المتنبي، السعودية، 2011م، ص12.

7 محمد الرميحي "الحوار الثقافي في العالم الثالث"، مجلة العربي، الكويت، ع345، أغسطس 1987م، ص10-11.

8 عبد الغفار نصر، إشكاليات النهضة ومعوقاتها، ط1، دار رام، دمشق، 2007م، ص301.

9 وليم باسكوم، ملفيل هُير سكوفتز، بحث بعنوان مشكلة الاستقرار والتغير في الثقافة الإفريقية، ترجمة عبد الملك الناشف، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، 1966م، ص12 وما بعدها.

10 شوكت محمد عليان، مرجع سابق، ص12.

11 محمد الرميحي "من مشكلات الثقافة العربية" مجلة العربي، الكويت، ع233، إبريل 1978م، ص57، 59.

12 تركي رابح، الشبيبة الجزائرية أمام أخطار الغزو الثقافي الاستعماري، مجلة الثقافة، الجزائر، ع80، مارس-إبريل 1984م، ص81 وما بعدها.

13 تركي رابح، مرجع سابق، ص81-82، أنظر كذلك زكي نجيب محمود، ثقافتنا في مواجهة العصر، ط4، دار الشروق، بيروت، 1989م، وللاطلاع على المزيد في هذا الجانب راجع كتب المؤلف تركي رابح المنشورة بالجزائر منذ عام 1970م.

14 تركي رابح، مرجع سابق، ص82-83.

15 المرجع نفسه، ص102.

16 ؟ محمد ذهني، جهاد الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا ضد الاستعمار الفرنسي، 1850 – 1914م، دار المريخ، الرياض، 1988م، ص214.

17 مرك البحوث والدراسات الإفريقية، أعمال مؤتمر التعليم من أجل التحرير في إفريقيا في الفترة من 20 إلى 25 مارس، 1988م، ج1، ص464.

18 المرجع والصفحة نفسها.

19 المرجع السابق، ج2، ص309.

20 أنظر المرزوقي علي الأدي، الغزو الثقافي الغربي، أسبابه ومخاطره ونتائجه، الجامعة المفتوحة، ليبيا، 2018م.

21 كوثر الغانم (إعداد) منظمات المجتمع المدني في دولة الكويت، إصدار وكالة الأنباء الكويتية، نوفمبر 2005م.